

أرض السافلين نكسة في فن الرواية

رواية أرض السافلين لأحمد خالد مصطفى تدور عن أرواح تجوب عوالم سفلية وتستجلي بواطنها وخلفياتها وتلتقي بمختلف الشخصيات التاريخية تبدأ الرواية بمقدمة يعرف فيها الكاتب الانترنت المظلم وما يدور فيه من سفالة حيث يمثل الانترنت المعروف لدينا 5% من حجم الانترنت وال 95% المتبقية هي الانترنت المظلم الذي يعج بكل المحرمات ولن نطيل في الحديث عنه اختصارا للوقت ولكن نختم حديثنا عنه بالنصح بعدم محاولة الدخول فيه فهو سوء لا خير فيه.

الرواية بدت للوهلة الأولى عميقة وواعدة لكنها أخذت في الانحدار المخيف بعد صفحات قليلة. نتعرف فيها على بناء يضم باحة دائرية تضم سبع نوافذ كل نافذة تمثل جزءا من ذلك العالم السفلي الشرير وبأخذنا الكاتب في جولة مطولة في تلك النوافذ كي يجلي لنا حقيقتها وباطنها. فالنافذة الأولى تمثل عالم الدعارة وما يدور فيه من صراعات بعضها فكرية وبعضها بهيمية فيطرح موضوع حقوق العاهرات واليوم العالمي للعاهرات وما يطالبن به من تشكيل نقابة تحفظ حقوقهن وأن الدعارة مهنة كأي مهنة وينبغي تغيير مسمائها وتلطيفه ليصبح عاملة في مجال الجنس ويطرح وجهة النظر المناهضة وتمسكها بوجوب القضاء على تلك المهنة ويطرح رؤية الدول لها لما تمثله من شريان اقتصادي ومصدر مهم لجذب السواح ثم يستجلي حقائق ملايين الداعرات بنمذجة لأربع قصص في أربع دول أوروبية وأمريكية وعربية تختزل كل ذلك العالم حينما يطرح قصة الطفلة اليتيمة التي تم بيعها فتنقلت من لئيم إلى شبكة من اللؤماء لينتهي بها المطاف لتكون عاهرة في ماخور دعارة فتجبر نفسها على الابتسام للزبائن بينما باطنها يضح بمأساة حقيقية ولا يمكن لها تغيير مصيرها فهي أسيرة شبكة ما فيا منظمة لو فكرت بالهروب منها لتضعف لها العذاب.

نلتقي بشخصية جاك السفاح الذي يقتل العاهرات ويشارك في ذلك النقاش مستميتا في إدانة أقدم مهنة في التاريخ.

فتاة تظن أنها ستعمل في مطعم لتجد نفسها عاملة في الدعارة، يعود بنا أيضا إلى مكة في السنة الأولى للدعوة ونجد أحد رؤوس المنافقين يدير بيتا للدعارة قبل نزول الآيات التي تحرم إيجاب فتيا تكم على البغاء

ننتقل إلى النافذة الثانية نافذة الشياطين ونبدأ برحلة إلى مناجم الفحم في أمريكا قبل النفط حينما كان الفحم المصدر الأول للوقود ونرى الشركات الكبرى تستخرجه من الجبال حتى يضرب العمال إضرابا مسلحا وينصبون خيامهم قبال مداخل الشركة مانعين بقية العمال من الدخول والخروج حتى تقع واقعة حريق في هيامهم نتج عنها تفحم إحدى عشر طفلا نتج عنه مذبح لادلو الشهيرة.

يستعرض الكاتب حياة أولئك العمال المساكين الذين يموت منهم خمسة رجال يوميا بسبب الاختناق أو الانفجارات أو الانهيارات ولا يتقاضون غير دولار ونصف يوميا إزاء عمل أربعة عشر ساعة يوميا ولا يستلمونها نقدا بل إيصالات لا تصرف إلا في المتاجر التابعة للشركة أي أن الشركة تستلم بالشمال ما تعطيه من مال باليمين فضلا عن استغلال الأطفال في العمل الشاق دون من يدافع عنهم غير امرأة تدعى الأم جونز.

من الجور النازل على هؤلاء البائسين أن القوات تمر عليهم برشاشاتهم وترعبهم بطلقات عشوائية ربما أصاب شيئا منها أطفالهم.

نجد حضور شيطان يقلب الحقائق ليحول العمال من مظلوم إلى ظالم وهو شيطان البروباغاندا الصحف الكذوبة.

ينتقل الكاتب إلى موضوع آخر وهو موضوع أحداث ١١ سبتمبر ليوغل في نظرية المؤامرة فيقرر أن الطائرات لم تكن لتسقط البرج بالكامل لولا افتعال تفجيرات بهدف هدم المبنى مستدلا بالعثور على آثار تلك القنابل ومستشهدا بحادثة مماثلة وقعت سنة ١٩٤٥ حينما اصطدمت طائرة بمبنى الامباير ستيت ولم ينهر المبنى بل تضرر الدور الذي صدمته الطائرة. بمعنى أن المخابرات الأمريكية هي التي فجرت البرجين وأن بن لادن الذي اعترف وتبنى التفجيرات إنما هو بن لادن مزيف والحقيقي مات سنة ٢٠٠١ وأن القاعدة لم تفصح القضية لأنها مستفيدة من البروباغاندا التي توفرها جعل زعيمها بعبعا يربح الأريكان. ولا يخفى ما في ذلك من تنطع وتكلف واستنتاجات وتحليلات مبنية على الاستحسانات لا الحقائق. وكأن الكاتب يريد إثبات نظرية المؤامرة بالحق وبالباطل ويطرح كل تحليل يجر النار إلى قرصه. طرق الكاتب موضوع الإعلام وكيف يري الناس ما يريد ويستتر عنهم ما لا يريد ويكذب ويحرف من أجل خدمة أجندته الموجهة.

تمكن الكاتب من تصوير الخبايا التي لا يراها الناس فمثلا المومس تتعرض للإجبار ابتداء من الاختطاف أو حتى الشراء من أهلها مستغلين فقرهم ثم تمر بالاغتصاب والضرب وكسر العزيمة حتى تخضع في النهاية. تلك الحكاية تجعلك تنعاطف مع تلك الفتيات مهما كنت تحتقرهن ومهما كنت مترمنا في قضية أن الظروف لا تبرر الجريمة.

كذلك خبايا السجون وما تحوي من تعذيب واستخراج الاعترافات تحته.

ما يكل جاكسون وما أثير حوله من شبهات تتعلق بالمثلية الجنسية والتحرش بالأطفال ثم تحول لونه إلى الأبيض لا بسبب عمليات التجميل بل بسبب مرض البهاق...

استحضار إنشتاين وفولتير ودارون ونيوتن وذر فورد وأرسطو وابن سينا وابن رشد وجاليليو حشرهم جميعا في فصل الإلحاد وجردهم من الأهواء ليكونوا عقولا مجردة ثم جعلهم يتناقشون عن قضايا الوجود والإلهيات في صفحات كثيرة جدا فلسفية وعلمية ودينية بالتأكيد لا تتحملها رواية وفصل بينها بفواصل سمح بمساحة ثلاثة أسطر خرجوا فيها يستريحون ويدخنون وكأنه بذلك كسر الحدة العلمية للطرح!

رغم أن الكاتب قرر الموضوعية في الطرح لكننا نراه يميل إلى النظرية الإسلامية ويجعلها توافق العلم الحديث من خلال رحلة خيالية كرتونية للفضاء قام بها الناطق الرسمي باسم المسلمين وبدأ يطبق كل مشاهدات الفضاء على ما ورد في النصوص الدينية رغم أن ذلك الناطق الرسمي لم يذهب للفضاء حقيقة إنما اعتمد على ما قاله العلماء من آراء ونظريات لم يختبرها بنفسه. بل ويناقض نفسه ففي الطرح النظري كان يقول أنه لا يمكننا التمييز بين السماوات السبع بالنظر فلا يوجد شقوق أو علامات يمكن من خلالها تمييز سماء عن سماء لكنه حينما خرج في الرحلة الكرتونية تلك كان يقول نحن الآن في السماء الثالثة والتي تمثل مجرة درب التبانة فلما ابتعد أكثر قال نحن في السماء الرابعة وهلم جرا.

فصل كامل عن عالم المخدرات وعرايه الأشهر بابلو اسكوبار وسونيا أتالا ويقرر أنه لا يوجد حكومة تحارب المخدرات فعلا فهو مصدر ثاني أكبر دخل في العالم ويستشهد بحادثة تعاون بين الرئيس الأمريكي ريجان وبين سونيا لتوريد كميات مهولة من المخدرات إلى أمريكا واستغلال أموالها في الحروب السياسية ضد الشيوعية.

فصل كامل عن العملات وكيف بدأت بعد مشوار طويل من المقايضة ثم التحول إلى العملات الذهبية والفضية والورقية.

ظهر في الكتاب أن الكاتب يتمتع بمعرفة واطلاع للظروف السياسية والحياتية المحيطة به واستعرض عضلاته في الرواية بما يشير لذلك.

نجح الكاتب في موضوع التشويق وأمسك بزمام القارئ بطريقة تحتسب له في بداية الرواية لكنه ما لبث أن أخفق إخفاقا ذريعا إذ وجدت نفسي أصاب بعدم الاهتمام بصورة أسرع من المتوقع وبدأت أطوي صفحات كثيرة لا علاقة لها بمسمى رواية فما علاقة الرواية بالإلكترونات والنيوترونات إلا كعلاقة طر بسلام عليكم. ورغم أن الكاتب افتتح الحكاية بقوله تحرر... تحرر من كل شيء وأنت آت. إلا أنه شخصيا لم يتحرر من نظرية المؤامرة.

الرواية فكرية بامتياز لكنها كانت على حساب بعض الأمور الفنية بل كل الأمور الفنية كالشخصيات التي جاءت مشوهة بلا ملامح واضحة فلم يهتم الكاتب بوصفها لا ظاهريا ولا باطنيا. وهذا طبيعي فحينما ستركز تفكيرك وجهدك ناحية اليمين ستهمل الشمال لا إراديا. ولم يترك شخصياته تصول وتجول بحرية بل حدها وحدد لها مسارا لا تحيد عنه يخدم أيديولوجية آمن بها وهي أيديولوجية المؤامرة.

المبالغات كانت حاضرة فرغم أن المنشأ كان واقعا لكن الكاتب قام بتضخيمه بوضع عدسته المكبرة واستمر بتسليط تلك العدسة حتى احترقت الأشياء من حوله لأنه لم يتنبه إلى أنه يسלט تلك العدسة في وضغ النهار والشمس تخترق العدسة وهي في أوجها.

الحوارات هي المتسيدة في مشهد الرواية وقد استغلها الكاتب ليعرض الأفكار التي أراد تمريرها فلم يترك الشخصيات تسير على سطح الرواية وفق طبائعها النفسية المختلفة والتي من المفترض أن يرسمها بعناية بل ساقها سوقا لتقول ما يريد هو دون أن يحدد أبعادا نفسية لشخصياته المشوهة من الأساس.

وحتى الحوارات المناهضة لنظرية المؤامرة لم يوردها الكاتب إلا ليؤكد النظرية فجعلها تطرح الشبهات ليقوم بتفنيدها يتجلى ذلك في شخصية ألكساندريا المناهضة للنظرية وشخصية زورك المناهضة عنها. كون الحوار سيد الرواية في جزء كبير منها على الأقل لا يعني جودته دائما بل يعني كثرته وهذا ما أدخله في كثير من المراحل دائرة السلب حينما يتحول إلى خطابات طويلة يقاتل فيها صاحبها لإثبات آرائه.

الحبكة مهلهل لا تدري معها على أي أرض تقف ويكفيك لتعرف ذلك شيئا أضافه الكاتب بغية إضفاء نوع من الإثارة فتحول إلى تأكيد على تهلهل الحكمة وهو أنه جعل القارئ يختار الفصول التي يريد البدء بها على الأقل الفصول الأخيرة مما يعني أنه لا فرق إن قرأت الفصل الأخير قبل الخامس فأني تهلهل وتهافت أكبر من ذلك؟!

لا ترابط بين الموضوعات فالكاتب يدخلك مكانا ويخرجك منه إلى آخر دون ربط أو منطقية فما علاقة طنز بسلام عليكم؟

وإن أردت وصف الرواية في جمل قليلة سأقول أنها رواية غير متزنة فنيا وتحتاج إلى هدم وترميم بل حتى ذلك لن يجدي معها لأنك حينها ستخرج بعدد صفحات لا يتجاوز الخمسين صفحة وهذا العدد عادة لا يقبل كمسمى رواية.

رواية بدأت بداية واعدة وانتهت نهاية محبطة.

رواية حاولت دمجت العلم بالرواية ففقدت البوصلة فلا هي رواية ولا هي كتاب علمي بل مخلوق مشوه بلا ملامح أو بلامح منفرة.

يبدو لي أنه لا علاقة للكاتب بفن الرواية مع شديد الاحترام وربما سمع عن شيء اسمه رواية فقرر الخوض في غمراته دون أن يقرأ رواية واحدة قبل ذلك.